فجرُ الهُدى والإيمان

من قصص الأنبياء



فجرُ الهُدى والإيمان

من قصص الأنبياء

للصغار واليافعين

١- آدم عليه السلام	٢- نوح عليه السلام
٣- هود عليه السلام	٤- صالح عليه السلام
٥- إبراهيم عليه السلام	٦- إسماعيل عليه السلام
٧- يُوسُف عليه السلام	٨- شُعيب عليه السلام
٩- أيّوب عليه السلام	١٠- يونُس عليه السلام
١١- موسى عليه السلام	١٢- داود عليه السلام
١٣- سُليمان عليه السلام	١٤- زكريا ويحيى عليهما السلام
١٥- عيسى عليه السلام	١٦- محمد صلى الله عليه وسلم

من قصص الأنبياء ، قصصٌ أُنيرت وزيدت إشراقاً بذكر أخبار رُسُل الرحمة والإنسانية ، رُسُل المحبة والسلام ، حقاً إنهم كانوا فَجرَ الهدى والإيمان ، صلوات الله عليهم وسلامه ، الذين أناروا ظلامَ عقول البشر، واقتلعوا منها الأوهام والأباطيل ودعوا إلى عبادة إلهٍ واحدٍ لاشريك له ، بدءاً من آدمَ عليه السلام وانتهاءً بخاتم الأنبياء والمرسلين ، محمد صلى الله عليه وسلم الذي أخبره الله تعالى في سورة هود عن نبأ من تقدمَّه من رُسُلٍ وأنبياء .

قال الله تعالى: (وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَاثُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِيْنَ)

الناشر

دار القلم العربي
للأطفال



١٥

إعداد وترتيب : زهير مصطفى

مراجعة : يوسف عبد الكريم عساني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مريم العذراء

كَانَتْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، أَكْثَرَ نِسَاءِ قَوْمِهَا، تَعَبُّدَاً لله وَطَاعَةً لَهُ، إذْ كَانَتْ تَقْضِي مُعْظَمَ وَقْتِهَا، مُنْزَوِيَةً فِي بَيْتِ المَقْدِس تَذْكُرُ الله وَتَعْبُدُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، بَعْدَ أَنْ كَفَلَهَا النَّبِيُّ زَكَرِيَّا عَلَيْهِ السَّلاَمُ، الْذِي كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقَاً مِنْ عِنْدِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَالَّتِي نَذرتْهَا أُمُّهَا لِتَكُوْنَ خَادِمَةً فِي بَيْتِ المَقْدِسِ، وَفِيْهَا يَقُوْلُ النَّبِيُّ ﷺ:

خَيْرُ نِسَاء العَالَمِيْنَ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيْجةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ رَسُوْلِ اللهِ.

ولادةُ عِيسى

بَيْنَمَا كَانَتْ مَرْيَمُ العَذْرَاءُ مُعْتَكِفَةً، فِي بَيْتِ المَقْدِسِ، مُتَعَبِّدَةً، مُطْمَئِنَّةً، لاَ تَلْوِيْ[1] عَلَى شَيْءٍ، بَعْدَ أَنْ رَضِيَتْ بِمَا قَسَمَهُ اللهُ لَهَا مِنْ خِدْمَةٍ لِبَيْتِ اللهِ، إِذْ ظَهَرَ أَمَامَهَا مَلَكٌ مِنْ مَلاَئِكَةِ الرَّحْمَن، بِصُوْرَةِ رَجُلٍ، فَهَبَّتْ فَزِعَةً خَائِفَةً، وَهَاجَتْ نَفْسُهَا وَاضْطَرَبَتْ وَحَاوَلتِ الهَرَبَ، إِذْ ظَنَّتْهُ رَجُلَ سُوْءٍ. يُرِيْدُ أَذِيَّتَهَا، وَهِيَ الطَّاهِرَةُ الْعَفِيفَةُ وَلَكِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعَثَ فِي نَفْسِهَا الأَمْنَ وَالطُّمَأْنِيْنَةَ، إِذْ خَاطَبَهَا المَلَكُ بِقَوْلِهِ:

مَا أَنَا يَا مَرْيَمُ إِلاَّ رَسُوْلُ رَبِّكِ، بَعَثَنِي لأُبَشِّرَكِ بِغُلاَمٍ زَكِيٍّ يَقُوْلُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورة مريم:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾[2].

وَعِنْدَمَا سَمِعَتْ مَرْيَمُ مَا قَالَهُ المَلَكُ، هَدَأَتْ نَفْسُهَا وَانْطَفَأَ غَضَبُهَا وَلَكِنْ سَرَتْ إِلَى نَفْسِهَا سَحَابَةُ حُزْنٍ عَمِيْقٍ، وَدَاخَلَهَا

---

(١) لا تلوي: لا تهتم بأحد.

(٢) سورة مريم الآيات (١٦ ـ ١٩).

الْقَلَقُ وَالْحَيْرَةُ، إِذْ كَيْفَ تَكُوْنُ أُمّاً وَهِيَ الْفَتَاةُ الْعَذْرَاءُ، الَّتِي لَمْ يَمْسَسْهَا رَجُلٌ قَطُّ؟. ثُمَّ اسْتَجْمَعَتْ قُوَاهَا وَقَالَتْ مُخَاطِبَةً الْمَلَكَ:

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ[1] بَغِيًّا﴾[2].

فَمَاذَا كَانَ جَوَابُ رَبِّهَا؟ انْظُرْ مَعِيْ إِلَى هَذا الرَّدّ الَّذِيْ يَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ الَّذِيْ إِذَا أَرَادَ شَيْئَاً أَنْ يَقُوْلَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ:

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[3].

وَمَرَّتْ شُهُوْرٌ وَظَهَرتَ عَلَيْهَا عَلاَئِمُ الْحَمْلِ، يَاالله، مَا أَقْسَى هَذِهِ الحَالَ، مَا الَّذِيْ أَرَادَهُ اللهُ بِيْ؟ وَمَاذَا أَفْعَلُ؟، أَيْنَ أَذْهَبُ؟، وَكَيْفَ أُوَارِيْ[4] مَا اسْتَتَر فِي أَحْشَائِيْ؟ وَمَاذَا سَيَقُوْلُ النَّاسُ عَنّي؟ عَذْرَاءُ لاَ زَوْجَ لَهَا تَحْمِلُ وَتَلِدُ!! يَالَلْعَجب.

لاَ شَكَّ أَنَّ قَوْمَهَا سَيَظُنُّوْنَ بِهَا الظُّنُوْنَ، وَسَيَتَّهِمُوْنَهَا فِيْ شَرَفِهَا وَعِفَّتِهَا، وَسَتَلُوْكُ سِيْرَتَهَا الأَلْسُنُ، وَيَنْتَشِرُ خَبَرُهَا بَيْنَ

---

(١) أك: أكن، حذفت النون للتخفيف.

(٢) سورة مريم (٢٠).

(٣) سورة مريم (٢١).

(٤) أوراي: أخفي وأستر.

النَّاسِ، دَارَتْ هَذِهِ الأَفْكَارُ فِي رَأْسِهَا، فَأَفْزَعَتْهَا وَأَخَافَتْهَا وَبَعَثَتْ فِي نَفْسِهَا الحَيْرَةَ والاضْطِرابَ، فَمَا كَانَ مِنْهَا إلاَّ أَنِ اعْتَزَلَتِ النَّاسَ، وَابْتَعَدَتْ عَنْهُمْ وَاتَّخَذَتْ لِنَفْسِهَا مَكَاناً قَصِيًّا[1]، فِي مَدِيْنَة النَّاصِرَةِ[2] مَسْقَطِ رَأْسِهَا، لِتُخْفِيَ الجَنِيْنَ عَنْ أَعْيُنِ الرُّقَبَاءِ، وَلَكِنْ كُلَّمَا تَقَدَّمتْ بِهَا الأَيَّامُ، كَانَ حُزْنُهَا يَكْبَرُ وَيَزْدَادُ، فَمَا هِيَ إلاَّ أَيَّامٌ حَتَّى يُفْتَضَحَ أَمْرُهَا وَيَشِيْعَ بَيْنَ النَّاسِ مَا كَانَتْ تُخْفِيْهِ وَعِنْدَهَا كَيْفَ سَتُوَاجِهُ النَّاسَ؟ وَكَيْفَ سَتُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهَا، وَقَدِ انْكَشَفَ مَا اسْتَتَرَ، وَهِيَ الفَتَاةُ المَعْرُوفَةُ بِالطُّهْرِ وَالعَفَافِ، وَهِيَ الَّتِي تَنْتَمِي إلَى أُسْرَةٍ شَرِيْفَةٍ كَرِيْمةٍ، فَأَبُوْهَا لَمْ يَكُنِ امْرَأَ سَوْءٍ أَوْ شَرٍّ، وَأُمُّهَا لَمْ تَكُنْ بَغِيّاً، أَمَّا قَوْمُهَا فَلَنْ يَرْحَمُوهَا، مَعَ أَنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ شَيْئاً يُغْضِبُ الله عَزَّ وَجَلَّ. إنَّهُ لَموقِفٌ يَصْعُبُ عَلَى المَاجِنَةِ المَارِقَةِ، فَكَيْفَ لاَ يَكُوْنُ صَعْباً وَمُرّاً، مُذَاقُ هَذا المَوْقفِ الّذِي ابْتُلِيَتْ بِهِ مَرْيَمُ العَذْرَاءُ.

وَفِي غَمْرَةِ هَذِهِ الوَسَاوسِ وَالأَحْزَانِ، اسْتَسْلَمَتْ مَرْيَمُ لِقَضَاء رَبِّهَا الَّذِي اصْطَفَاهَا مِنْ بَيْنِ نِسَاء العَالَمِيْنَ، فَاتَّجَهَتْ إلَى رَبِّها عَابِدَةً شَاكِرَةً، سَاجِدَةً رَاكِعَةً، وَرَضِيَتْ وَاطْمَأَنَّتْ، أَوَلَمْ يُخْبِرْها اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهَا سَتَلِدُ مَنْ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المَهْدِ، أَلَيْسَتْ هَذِهِ

---

(١) قصياً: بعيداً.

(٢) الناصرة: مدينة في فلسطين.

الْمُعْجِزَةُ بِكَافِيَةٍ لِلرَّدِّ عَلَى أَبْنَاءِ قَوْمِهَا؟.

أَلَيْستْ هَذِهِ الْمُعْجِزَةُ كَفِيْلَةً بِرَدِّ التُّهْمَةِ عَنْهَا وَتَبْرِئَتِهَا؟ يَقُوْلُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى فِي سُوْرَةِ آل عمران:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ ﴾[1].

وَأَزفتْ[2] سَاعَةُ الوِلاَدَة، تِلْكَ السَّاعَةُ الّتي كَانتْ تَتَوَجَّسُ مِنْهَا خِيفَةً، وَخَرَجتْ مَرْيَمُ العَذْرَاءُ وَهِي تُعَانِي مِنَ الآلَامِ الْمَخَاضِ[3]، تَارِكَةً قَرْيَتَهَا كَيْلاَ يُكْشَفَ أَمْرُهَا، وَقَادَهَا الأَلَمُ وَالوَجَعُ إلى نَخْلَةٍ يَابِسَةٍ. جَلَستْ تَحْتَهَا وَحِيْدَةً حَزِيْنَةً، تُعَانِيْ آلاَمَ المَخَاضِ دُوْنَ أَحَدٍ يُسَاعِدُهَا أَوْ يَعْطِفُ عَلَيْهَا... وَوُلِدَ الْمَسِيْحُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا وَجَعَلتْ تَرْنُو إِلَيْهِ وَهِيَ تَذْرِفُ الدُّمُوْعَ، مُتَمَنِّيَةً أَنْ تُفَارِقَ هَذِهِ الْحَيَاةَ قَبْلَ افْتِضَاح أَمْرِهَا أَوْ أَنَّها لَمْ تُخْلَق بِالْكُلِّيَّة:

---

(١) سورة آل عمران (٤٢ ـ ٤٥).

(٢) أزفت: حانت.

(٣) المخاض: آلام الولادة.

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا[1] ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾[2] .

وَلَكِنْ مَا كَانتْ تَخْشَاهُ قَدْ حَصَلَ، وَهَا هُوَ الطِّفْلُ بَيْنَ يَدَيْهَا، فَمَاذَا تَفعلُ؟ أَتَحمِلُ ابْنَهَا وَتَظْهرُ بِهِ عَلَى قَوْمِهَا؟ أَمْ تَبقى فِي مَكَانِهَا بَعِيْدَةً عَنِ النَّاسِ؟ وَإِلَى مَتَى يَدُوْمُ هَذَا الحَالُ؟ أَلَنْ يَنْكَشف أَمْرُهَا؟ .

وَحَارَتْ مَرْيمُ فِي أَمْرِهَا، وَغَلَبَها الحُزْنُ وَالهَمُّ، وَلَكِنَّهَا سَرْعَانَ مَا سَمِعتْ صَوْتَاً يُنَادِيْهَا، أَفَاقتْ لَهُ مِنْ غَيْبُوبَتهَا، فَمَسَحتْ دُمُوْعَهَا وَأَصَاختِ السَّمْعَ وَإِذْ بِهِ يَقُوْلُ: لاَ تَحزنِيْ يَا مَرْيَمُ وَانْظُرِيْ تَحْتَك تَرَيْ الْمَاءَ الفُرَاتَ[3] يَجْرِي (فِي هَذِهِ الْبُقْعَةِ الْجَرْدَاءِ) وَهُزِّيْ جِذْعَ النَّخْلَةِ لِيَسْقُطَ التَّمْرُ اللَّذِيْذُ، فَكُلِيْ وَاشْرَبِي لِتَسْتَعِيدي بَعْضَ قُوَّتِكِ، وَاطْمَئنِّي فَهَا هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَرْسَلَ الْمَاءَ يَجْرِيْ، وَالنَّخْلةَ الْيَابِسَةَ تُثْمِرُ، إكْرَاماً لَكِ وَتَطْيِيْباً لِخَاطِرِكِ. وَإِنْ صَادَفْتِ بَعْضَ الْبَشَر فِي طَرِيْقِكِ فَقُولِي لَقَدْ نَذَرْتُ الصَّوْم، وَلَنْ أُكَلِّمَ بَعْدَ هَذَا الْيَوم أَحداً مِنَ الْبَشَرِ:

---

(١) فأجاءها: ألجأها.

(٢) سورة مريم (٢٢، ٢٣).

(٣) الفرات: العذب.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا(١) ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا(٢) جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾(٣).

وَحَمَلَتْ مَرْيَمُ وَلِيْدَهَا وَاتَّجَهتْ إِلَى قَوْمِهَا بَعْدَ أَنْ سَكَنَ فُؤَادُهَا، وَهَدَأَ رَوْعُهَا، وَمَا إِنْ رَأَوْهَا حَتَّى أَخَذُوا يُؤَنبُوْنَهَا، وَيَسْأَلُونَهَا عَنْ سِرِّ هَذَا الوَلِيْدِ الَّذِيْ تَحْمِلُهُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَتكلَّمْ سِوى أَنَّهَا قَالَتْ: إِنِّيْ نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْمَاً، فَلَنْ أَرُدَّ عَلَيْكُمْ، فَإِنْ أَرَدْتُمْ مَعْرِفَةَ الْحقِيْقَةِ، فَهَا هُوَ ذَا الغُلَامُ، كَلِّمُوْهُ، وَاسْأَلُوْهُ.

لَكِنَّ الْقَومَ دُهِشُوا مِنْ قَوْلِهَا، وَسَخِرُوا مِنْهَا، فَكَيْفَ يُكَلِّمُوْنَ مَنْ هُوَ فِي المَهْدِ؟ فَأَنْطَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ الوَلِيْدَ، وَجَعَلَه يَتَكَلَّمُ كَمَا يَتكلَّمُ الْكِبَارُ:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ

---

(١) سريا: نهراً.

(٢) رطباً: التمر.

(٣) سورة مريم (٢٤ ـ ٢٦).

حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[1].

أَفَبَعْدَ هَذِهِ المُعْجِزَةِ، يُنْكِرُوْنَ بَرَاءَتَهَا، أَلَمْ يَنْطِقْ ذَلِكَ الوَلِيْدُ، وَجَاءَهُمْ بِأَمْرٍ لَمْ يَعْتَادُوا عَلَيْهِ، وَبُرْهَانٍ سَاطِعٍ عَلَى طُهْرِهَا وَبَرَاءَتِهَا، أَلَيْسَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَهُ بِدُوْنِ أَبٍ، وَهُوَ الّذيْ أَنْطَقَهُ فِي المُهدِ، أَمَّا قَوْمُهَا فَقَدْ بُهِرُوا بِمَا سَمِعُوا، وَأَكْبَرُوا ذَلِكَ الطِّفْلَ وَشَاعَ أَمْرُهُ بَيْنَ النَّاس، وَعَلِمُوا أَنَّ هَذَا الْوَلِيْدَ سَيَكُوْنُ لَهُ شَأْنٌ عَظِيْمٌ. وَلَكِنَّ فِئَةً مِنَ النَّاسِ قَلِيْلَةً، أَنْكَرَتْ مَا سَمِعتْ، وَظَنَّتْ أَنَّ مَا سَمِعَتْهُ مَا هُوَ إلاَّ حَدِيْثُ خُرَافَةٍ أَوْ أَنَّهُ مِنِ ابْتِدَاعِ أَهْلِهَا لِيَدْفَعُوا التُّهْمَةَ عَنْهَا، وَلِيُظْهِرُوا بَرَاءَتَهَا، أَمَّا مَرْيَمُ فَلَمْ تَلْتَفِتْ إِلَى هَذِهِ الْفِئَة الظَّالِمَةِ وَجَلَستْ فِي بَيْتِهَا مَعَ طِفْلِهَا تَرْعَاهُ وَتَحْمِيْه، وَهِيَ سَعِيدَةٌ هَانِئَةُ البَال، قَرِيْرَةُ النَّفْس مُنْشَرِحَةُ الصَّدْرِ.

مَنْشَؤُهُ وَنُبُوَّتُه

تَرَعْرَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَنَشَأَ فِي كَنَف أُمِّهِ الَّتِي مَا بَخلتْ عَلَيْهِ فِي شَيْءٍ، حَتَّى شَبَّ وَكَبِرَ وَأَخَذَ يَلْعبُ وَيَلْهُو مَعَ

(١) سورة مريم الآيات (٢٧ ـ ٣٣).

أَقْرانِهِ مِنَ الأَطْفَالِ، إلاَّ أَنَّ فَضْلَهُ وَمَظَاهِرَ نُبُوَّتِهِ، بَدَأَتْ تَظْهَرُ، فَهُوَ إِذْ يَسْأَلُهُ أَصْحَابُهُ عَنْ شَيْءٍ مَا، خفيٍّ، يُخْبِرُهُمْ بِهِ، بَلْ وَيقفُ أَمَامَ مُعَلِّمِهِ يَرُدُّ عَلَيْهِ خَطَأَهُ وَيُبيِّنُ لَهُ الصَّوَابَ، وَرَحَل عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، مَعَ أُمِّهِ إِلَى بَيْتِ المَقْدس، وَرَأَى مَا يَرَى مِنِ اخْتِلاَفِ القَوْمِ، وَتناحُرِهِمْ وَانْتِشَار الفَسَادِ وَالطُّغْيان فِي صُفُوْفِهِمْ، فَلَمْ يَنْغَمسْ كَمَا يَنْغَمِسُ الأَطْفَالُ فِي سِنِّهِ فِي اللَّهْو وَالْعَبَث، بَلْ مَالَ إِلَى العلْم يَنْهَلُ مِنْهُ، وَمَرَّتْ بِهِ السِّنُوْنَ، إِلَى أَنْ بَلَغَ الثَّلاَثِيْنَ مِنْ عُمرِهِ، حَيْثُ تَلَقَّى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ الإِنْجِيْلَ، الَّذِيْ جَاءَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَديْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ.

فَأَخَذَ يَدْعُو النَّاسَ، إِلَى الدِّيْنِ الْجَدِيْدِ، وَيُحَاوِلُ أَنْ يَرُدَّ الْيَهُوْدَ عَنْ فِسْقِهِم وَطُغْيَانِهِمْ وَمُؤَامَرَاتِهِمْ فِي قَتْلِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمرُسَلِيْنَ، فَاجْتَمَعَ حَوْلَهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، آمَنُوا بِهِ وَبِمَا جَاءَهُمْ مِنْ كِتَابٍ، وَاتَّبَعُوْهُ وَسَارُوا عَلَى هَدْيِهِ، إِلاّ أَنَّ طَائِفَةً مِنَ الْيهُوْدِ، أَنْكَرُوا نُبُوَّتَهُ، وَكَفَروا بِالحَشْرِ، وَكَذَّبُوا بِيَوْمِ الْحِسَابِ، وَانْغَمَسُوا بِمَلَذَّاتِ الدُّنْيا، وَغَرَّهُمْ مَتَاعُهَا، وَشَعرُوا بِالخَطَرِ المُحدِقِ بِهِمْ وَبِما سَيَؤُوْلُ حَالُهُم إِلَيْهِ، إِنِ اسْتَمَرَّ عِيْسى عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي مُحَارَبَتِهِمْ، وَإِنْكَارِهِ عَلَيْهِمُ انْغِمَاسَهُمْ فِي الشَّهَواتِ، وَتَهَالُكَهُمْ عَلَى اللَّذَّاتِ، فَأَجْمَعُوا وَاتَّفَقُوا عَلَى مُحَارَبَتِهِ وَتَكْذِيبِهِ وَمُحَاوَلَةِ إِيْذَائِهِ، إلاَّ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ لَهُمْ بِالْمِرْصَادِ:

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[1].

وَاسْتَمَرَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى دِيْنِ اللهِ، وَيُنْذِرُهُمْ مِنْ عَاقِبَةِ عِصْيانِهِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، وَأَيَّدَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْمُعجِزَاتِ، بَعْدَ أَنْ طَالَبَهُ النَّاسُ، بِمَا يُؤَيِّدُ رَأْيَهُ فَصَارَ يَخْلُقُ مِنَ الطِّيْنِ الطَّيرَ بِإِذنِ اللهِ، وَيَشْفِي الأَعْمَى وَالأَبْرَصَ، وَيُحْيِي الْموتَى بِإِذنِ اللهِ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُوْرَةِ آلِ عِمْرَانَ:

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2].

المعجزةُ الكبرى

خَرَجَ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِصُحْبَةِ الْحَوَارِيِّيْنَ، وَهُمْ أَنْصَارُهُ وَالَّذِيْنَ اتَّبَعُوهُ: يَدْعُو إِلَى دِيْنِ اللهِ، وَالحَوَارِيُّونَ يَشُدُّوْنَ مِنْ أَزْرِه، وَيَقِفُونَ إِلَى جَانِبِه، يُسَانِدُوْنَهُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ،

---

(١) سورة آل عمران الآية (٥٤).

(٢) سورة آل عمران (٤٨ ـ ٤٩).

يَدْفَعُوْنَ عَنْهُ الأَذَى وَيَتَحَمَّلُونَ مَعَهُ مَشَاقَّ السَّفَر، وَيَحْمُوْنَهُ مِنْ أَعْيُنِ الرُّقَبَاءِ الَّذيْن يَتَرصَّدُوْنَهُ يُرِيْدُوْن بِهِ شَرّاً. وَوَصَلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَصَحْبُهُ أَثْنَاءَ ترْحَالِهِ إِلَى صَحْرَاءَ مُجْدِبَةٍ، لاَمَاءَ فِيْهَا وَلاَ زَرْعَ وَكَانَ الْحَوَارِيُّوْنَ صَائِمِيْنَ، فَاشْتَدَّ بِهِمُ العَطَشُ وَكَادَ أَنْ يَفْتِكَ بِهِمُ الجُوْعُ، وَتَهَالَكُوا وَوَهَنتْ قُوَّتُهُمْ وَضَعُفتْ عَزَائمُهم، فَجَلَسُوا يَتَشاوَرُونَ فِيْمَا يَفْعَلُونَ، وَالأَعْدَاءُ يَترَبَّصُونَ بِهِمْ شَرّاً، وَخَرَجُوا وَقَدِ اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَطْلبُوا مِنْ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، أَنْ يَسْأَل رَبَّهُ مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ، يُطْفِئُونَ بِهَا جُوْعَهُمْ وَظَمَأَهُمْ، وَهُمْ بِهَذَا الطَّلبِ غَيْرُ شَاكِّيْنَ بِقُدْرَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ أَوْ بِنُبُوَّةِ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَهُمُ الَّذِيْنَ آمَنُوا بِالله وَبِرَسُولِهِ وَقَالُوا لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلمُونَ:

﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[1].

فَقَالَ لَهُمْ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ مُحَذِّراً، إِيَّاكُمْ يَاقَوْمُ مِنْ عَاقِبَةِ سُؤَالِكُمْ هَذَا، وَأَخْشَى أَنْ تَكُوْنَ هَذِهِ المَائِدَةُ فِتْنَةً لَكُمْ تَصْرفُكُمْ عَنْ دِيْنِ الله، فَلِمَاذَا تَطْلُبُونَ تِلْكَ الْمُعجِزَة، وَقَدْ أَجْرى اللهُ عَلَى يَدَيَّ مُعْجِزَاتٍ كَثِيْرَةً، وَلَكِنَّ الْحَوَارِيِّيْنَ أَجَابُوهُ بِأَنَّهُمْ مَازَالُوا

---

(١) سورة آل عمران الآيات (٥٢ ـ ٥٣).

مُؤْمِنِيْنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَمْ يَطْلُبُوا هَذَا الطَّلَبَ إِلاَّ لِيَسُدُّوا رَمَقَهُمْ وَيَمْنَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمُ المَوتَ جُوْعَاً أَوْ عَطَشَاً وَعِنْدَمَا رَأَى عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِنَ الْحَوَارِيِّيْنَ إِصْرَاراً عَلَى طَلَبِهِمْ، دَعَا اللهَ تَعَالَى أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةً تُنْقِذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيْهِ:

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَائِدَةً عَامِرَةً بِأَطَايِبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَأَكَلُوا وَشَرِبُوا وَشَكَرُوا اللهَ العَظِيْمَ، وَتَحَدَّثَ النَّاسُ عَنْ هَذِهِ المُعْجِزَةِ البَاهِرَةِ وَالآيَةِ العَظِيْمَةِ، فَآمَنَ بِاللهِ وَبِرَسُوْلِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ أَمَّا الْحَوَارِيُّوْنَ فَازْدَادُوا إِيْمَانَاً فَوْقَ إِيْمَانِهِمْ، وَيَقِيْنَاً فَوْقَ يَقِينِهِمْ.

(١) سورة المائدة الآية (١١٢ ـ ١١٥).

رفعُ عيسى إلى السماء

لَمْ تُفْلحْ مُحَاوَلاَتُ الْيَهُود الفَاسِقِيْنَ، مِمَّنْ غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، فَكَفَرُوا بِالله عَزَّ وَجَلَّ وَبِرَسُوْلِهِ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فِي إرغْامِهِ عَنِ التَّخَلّيْ عَمَّا جاءَ فِيْهِ، بَلِ اسْتَمَرَّ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي نَشْرِ دَعْوتِهِ وَفِي التَّصَدّيْ للْفَاسِقِيْنَ مِنْ بَنِي قَوْمِهِ. بَلْ إنَّ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ ازْدَادَ قُوَّةً بِازْدِيَاد أَنْصَارِهِ، بَعْدَ تِلْكَ المُعْجِزَاتِ الَّتِي أَيَّدَهُ اللهُ بِهَا، فَازْدَادَ اليَهُودُ حَنقًا وَغَيْظاً، وَوَشَوْا بِهِ إلَى مُلُوْكِهمُ الْكَفَرةِ، وَصَوَّرُوْهُ رَجُلاً مُثِيْراً للْفِتَنِ، خَارِجاً عَنِ القَانُونِ، مُتَطلِّعاً إلَى المُلْكِ، مُتَآمِراً عَلَى المُلُوكِ.

لَكِنَّ الْيَهُودَ تَسَرَّب إلَيْهِمُ الْيَأسُ، وَقَنطُوا مِنْ مُحَاوَلةِ مُقَاوَمَةِ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَأَصْحابِهِ، فَمَالُوا كَعَادَتِهِمْ إلَى الْحِيْلَةِ وَالْخَدِيعَةِ، إذْ بَثُّوا الْجوَاسِيْسَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، يَنْشُرُون السُّمُومَ وَالأَقَاوِيْلَ، وَيُشِيْعُونَ بَيْنَ النَّاسِ، أَنَّ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، مَاهُوَ إلاّ سَاحِرٌ، أَخَذَ بِسِحْرِهِ عُقُولَ النَّاسِ وَأَنَّ مُعْجزَاتِهِ مَا هِيَ إلاَّ مِنْ فِعْلِ الشَّيْطَان وَأَنَّهُ مَارِقٌ فَاسِقٌ خَرَجَ عَنْ دِينِهِمْ وَكَفر بِنَبِيِّهِمْ، وَذَهبَتْ مُؤَامَرَاتُهُمْ أَدْرَاجَ الرِّيَاح، وَعِنْدَما شَعَرُوا بِأَنَّ النَّاسَ، أَخَذُوا يَنْفَضُّونَ عَنْهُمْ، وَخَافُوا إنِ اسْتَمَرَّ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ فِي نَشْرِ دَعْوتِهِ أَنْ تَذْهَبَ رِيْحُهُمْ وَتَنْقَطعَ ثَرْوَتُهُمْ، أَجْمَعُوا عَلَى أَنْ يَتَخلَّصُوا مِنْ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، لِيَسْتأْصِلُوا أَصْلَ الدَّاءِ، الّذي

أَرَّقَ مَضَاجِعَهُمْ فَعَقَدُوا العَزْمَ عَلَى قَتْلِهِ، وَبَيْنَمَا هُمْ فِي هَمِّهِمْ وَيَأْسِهِمْ وَخَوْفِهِمْ عَلَى مَاآلَتْ إِلَيْهِ حَالُهُمْ، دَخَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ، وَهَمَسَ فِي آذَانِهِمْ، أَنَّه يَعْرِفُ مَكَانَ عِيْسَى، وَشَجَّعَهُمْ عَلَى قَتْلِهِ، فَفَرِحَ القَوْمُ وَأَسْرعُوا إِلَى المَلِكِ، الَّذِيْ أَرْسَلَ مَعَهُمْ جُنُوداً لإِحْضَار عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ.

وَلَكِنَّ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، قَدْ عَلِم بِكَيْدِهِمْ، وَبِمَا أَخْفَوهُ وَأَدْرَكَ أَنَّ رِجَالَ الْمَلِكِ يُلاحِقُونَهُ فَأَخَذَ يَنْتَقِلُ مِنْ مَكَان إِلَى آخَرَ، فَلاَ يَسْتَقِرُّ فِي مَكَانٍ، دُوْنَ أَنْ يَتَوقَّفَ عَنْ نَشْر دَعْوَتِهِ، وَلَكِنَّ الْجُنُودَ وَأَثْنَاء بَحْثِهِمُ الْمَحْمُوم عَنْ عِيْسَى وَأَتْبَاعِهِ، عَثَرُوا عَلَيْهِ فِي مَخْبَئِهِ وَلَكِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَكُنْ لِيُمَكِّنَ أَعْدَاءَهُ مِنْ عِيْسَى، إِذْ أَخْفَاهُ عَنْ أَعْيُنِ النَّاظِرِيْنَ وَرَفَعهُ إِلَيْهِ، فَوقَعَ نَظَرُهُمْ عَلَى رَجُلٍ شَدِيْد الشَّبَه بِهِ، فَقَيَّدُوْهُ وَاقْتَادُوْهُ إِلَى سَاحَةٍ صُلِبَ فِيْهَا، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ صَلَبُوا عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُوْرَةِ النِّسَاءِ:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(١).

هٰذَا وَبَعْدَ النَّبِيّ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، بَقِي النَّاسُ مُدَّةً طَوِيْلَةً

(١) سورة النساء الآيات /١٥٧ ـ ١٥٨/ .

دُوْنَ أَنْبِيَاءَ، إِلَى أَنِ اسْتَفْحَل أَمْرُهُمْ وَصَارُوا يَعْبُدُوْنَ الأَصْنَامَ وَالأَوْثَانَ، مِنْ دُوْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأَرْسَل اللهُ جَلَّ شَأْنُهُ نَبِيَّ البَشَرِيَّةِ وَالإِنْسَانِيَّةِ وَخَاتَمَ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرسَلِيْنَ، مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، ﷺ، لِيُعلِّمَهُمْ وَيُزَكِّيَهُمْ وَيَهْدِيَهُمْ إِلَى سَوَاءَ السَّبِيْلِ، بَعْدَ أَنْ بَشَّرَ بِهِ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلامُ عِنْدَمَا أَخْبرَ بَنِي إِسْرَائيْل بِذَلك:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(1).

* * * * *

(1) سورة الصف الآية / ٦/ .